حقيقة الفكر الصوفي عند الأمير عبد القادر
المفكر الراشد و القائد الرائد

بن عمار الزهرة: أستاذة محاضرة أ
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية
جـــامعة وهران أحمد بن بلة1

الملخص

الأمير عبد القادر هو المثال الصوفي الحديث الذي وقف في وجه الاستعمار الفرنسي، و حاول في نفس الوقت بناء دولة فتية حديثة مؤسسة على دعائم من العلم و الثقافة.

فقد كان للأمير عبد القادر شخصية صوفية متحررة من قيود التقليد و التبعية، و متطلعة إلى صفاء الشريعة الإسلامية و جوهرها النقي.

ونحاول من خلال هذا البحث أن نميط اللثام عن شخصية الأمير، مجاهد للاستعمار، و معلم ومربي في مجال التصوف الإسلامي، فنلقي الضوء على تصوفه و أفكاره و ممارساته الروحية الحية والإيجابية

الكلمات المفتاحية: التصوف، المجاهد، الروحية، المفكر، القائد، الأمير عبد القادر.

Abstrect

Prince Abdelkader is the modern Sufi example that stood in the face of French colonialism, while at the same time trying to build a modern young state based on pillars of science and culture.

Prince Abdul Qadir had a mystical figure free from the constraints of tradition and subordination, looking forward to the purity and the pure essence of Islamic law.

Through this research, we attempt to reveal the personality of the Emir, a Mujahid of colonialism, and a teacher and educator in the field of Islamic Sufism, shedding light on his spiritual and positive Sufism, thoughts and practices.

Keywords: Sufism, mujahid, Spiritual, Thinker, Leader, Prince Abdul Qadir

المقدمة

اختلف الكثير من الدارسين في أصل التصوف، فمنهم من أرجعه إلى أصل هندي، و منهم من رده إلى الرهبنة المسيحية، ومنهم من اعتبره امتداد للفلسفة اليونانية، و آخرون قالوا بأنه نابع من البيئة العربية الإسلامية ، في حين يقول المتصوفة أنفسهم: أن التصوف مؤسس على الكتاب و السنة و قائم على سلوك الأنبياء والأصفياء.[1]

ولنصل إلى معرفة أصل التصوف و نشأته نتعرض لمعنى كلمة :(تصوف - صوفي – صوفية).

تعددت التعاريف في حد التصوف و رسمه ، نورد بعضا منها :

من حيث اللغة

كثرت الأقوال في اشتقاق التصوف عند المسلمين على عدة أقوال، أشهرها[2]:

أنه من الصوفة، لأن الصوفي مع الله كالصوفة المطروحة، لاستسلامه لله تعالى.

أنه من الصّفة، إذ أن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، وترك المذموم منها.

أنه من الصُفّة، لأن صاحبه تابعٌ لأهل الصُفّة الذين هم الرعيل الأول من رجال التصوف (وهم مجموعة من المساكين الفقراء كانوا يقيمون في المسجد النبوي ويعطيهم رسول الله ﷺ من الصدقات والزكاة طعامهم ولباسهم).

أنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله؛ وتسابقهم في سائر الطاعات.

أنه من الصوف، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاخشيشان.

أنه من الصفاء، فلفظة "صوفي" على وزن "عوفي"، أي: عافاه الله فعوفي، وقال أبو الفتح البستي:

وظنه البعض مشتقاً من الصوف تنازع الناس في الصوفي واختلفوا

صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتىً

أنها في الأصل صفوي، ونقل ذلك الطوسي أبو نصر السراج، في كتابه الذي يعد أقدم مرجع صوفي، عن صوفي فقال: (كان في الأصل صفوي، فاستثقل ذلك، فقيل : صوفي – وبمثل ذلك نقل عن أبي الحسن الكناد : هو مأخوذ من الصفاء [3].

فلفظ تصوف مشتق من اسمه صوفي و هي مشتقة من الصفاء ، فجعلوا منه : صوفي ، فعلا مبنيا للمجهول ، من صافى ، و قلب صوفي ، تجنبا للثقل .[4]

ويذهب بعض المستشرقين أن كلمة صوفي مأخوذة من (صوفيا)اليونانية بمعنى الحكمة، وعندما فلسفت العرب عبادتهم حرفوا الكلمة و أطلقوها على رجال التعبد و الفلسفة الروحية، أو مأخوذة من (ثيوصوفيا) بمعنى الإشراق أو محب الحكمة الإلهية ، و وافق هذا الرأي المستشرقين : نولدكه و فون هارمر .[5]

ويرد الإمام القشيري على ذلك بقوله :" إنه ليس يشهد لهذا الاسم صوفي من حيث العربية قياس و لا اشتقاق و الأظهر فيه أنه كاللقب ."[6]

وهناك من نسب الكلمة إلى الصوف للبسهم الصوف أو نسبة إلى أهل الصفة (أهل الصفة هم طائفة من فقراء المهاجرين كانوا يسكنون مسجد النبي – صلى الله عليه و سلم – قال أبو هريرة – كما في صحيح البخاري - :" و أهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل و لا مال و لا على أحد إذا أتته – أي رسول الله – صلى الله عليه و سلم – صدقة ، بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئا ، وإذا أتته هدية ، أرسل إليهم و أصاب منها و أشركهم فيها ."[7]

فهذا هو الاختلاف الواقع في أصل لفظة التصوف واشتقاقها ، ولذلك اضطر الصوفي القديم" علي الهجويري المتوفى سنة 465هـ إلى أن يقول :" إن اشتقاق هذا الاسم لا يصح من مقتضى اللغة في أي معنى ، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشتق منه ."[8]

أما عن جذور التصوف وأصوله، فمن الباحثين من يرد التصوف إلى أصول الديانة الفارسية التي ظهرت بخرسان، حيث تلاقت الديانات والثقافات الشرقية وبعد دخول أهلها الإسلام صبغت بعض المبادئ الإسلامية بالصبغة الصوفية القديمة .[9]

ويرى المستشرق نيكلسون :" التصوف قد يكون عن تأثيرات خارجية غير إسلامية كالبوذية وأنه ليس في القرآن أصل للتفسير الصوفي ."[10]

أما بالنسبة للديانة الهندية، فقد تعددت الديانات في الهند منذ القدم فعبدوا الأوثان (حيوانات، شمس) وعبادتهم"لبترا" معبود مقدس تقدم له الهدايا. وجوهر هذه الديانة الإيمان بعالم الأموات الذي يؤثر في الكون .[11]

ويرى جولد تسهير : أن الصوفية تأثرت باليهودية، مستدلا بدخول بعض اليهود الإسلام ووضعهم لكثير من الأحاديث النبوية (الإسرائيليات) وأن نظرية التشبيه والتجسيم لدى اليهود تشبه نظرية الإتحاد والحول لدى الفلسفة الإسلامية .[12]

أما بالنسبة للمسيحية، فقد نقلت أفكار الرهبنة والزهد إلى العرب نتيجة التجارة . يقول المستشرق مركس :" إن التصوف الإسلامي مأخوذ من رهبانية الشام خاضع للروحانية المسيحية ."[13]

كما يرى نيكلسون أن المتصوفة تشبهوا برهبان النصارى في لبس الصوف .
و وافقه ماسينيون واعتبر التصوف دخيل على الإسلام بدليل اختلافهم مع أهل السنة [14]

إذن يمكن القول أن التصوف مذهب روحي عرف بين بعض الشعوب ذات الحضارات القديمة، لكنه ليس فرقة من الفرق المذهبية كأهل السنة أو الشيعة أو المعتزلة ، حيث أنه من الجائز أن يكون الصوفي سنيا أو شيعيا أو معتزليا .[15]

وتكاد تتفق معظم الآراء حول التصوف على أنه : نزعة روحية تنأى بالإنسان عن العالم المادي وترتفع به إلى العالم الروحي . وهو بهذا المعنى يكون ظاهرة إنسانية تنشأ في كل بيئة دينية .

وبذلك يكون التصوف فكرا باطنيا وتراثا روحيا وعلميا، ويكون التصوف الإسلامي جزءا من التراث العربي الإسلامي وجزءا من التصوف العالمي .

فما معنى التصوف في الاصطلاح الشرعي الإسلامي؟

التصوف في الاصطلاح الشرعي

عرفه أحمد أمين بقوله : هو عبارة عن نزعة من النزعات الوجدانية ورغبة روحانية من مجموعة من الميولات الإنسانية تجاه حدث أو فعل أو شيء ما. ومن ثم، يمكن الحديث عن معتزلي صوفي وأشعري صوفي وفقيه صوفي ونصراني صوفي ومسيحي صوفي..[16]

وعرف ابن خلدون التصوف بقوله هو: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ."[17]

فالتصوف إذن، عرفان وجداني وشوق ذوقي ومجاهدة ربانية تقوم على الزهد في الحياة وترك الدنيا الواهمة. وعليه فالتصوف الإسلامي مر بمراحل، هي:

أ- مرحلة الزهـد:

ظهر الزهد مع بداية الدعوة الإسلامية في القرن الهجري الأول، وكان هذا السلوك يقوم على دعامتين أساسيتين، وهما: الزهادة في الدنيا والابتعاد عن ملذات الحياة الزائفة الواهمة، والإقبال على الآخرة الباقية الخالدة. والدعامة الثانية تتمثل في حب الله بدون واسطة بشرية.

وهناك العديد من نصوص القرآن والحديث النبوي التي كانت تحث على الزهد والتقشف في الحياة والاستعداد للموت وترك الدنيا، لأنها دار غرور وزينة وخداع وخيلاء. يقول تعالى: " أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ " (سورة التكاثر: 1-2) ، ويقول أيضا: " الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ." (الكهف : 46)، ويقول أيضا:" وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ."(الكهف : 45)

ومن الآيات الدالة على الحب الإلهي ما قاله تعالى:"والذين آمنوا أشد حبا لله". (البقرة : 165) وفي الحديث النبوي الشريف: "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ."[18]

ومن أهم الزهاد في القرن الأول الهجري الخلفاء الراشدون الأربعة رضوان الله عليهم الذين كانوا يقتدون بحياة الرسول ﷺ فضلا عن الصحابة العدول والتابعين وخاصة أبا ذر الغفاري وسلمان الفارسي وصهيب وأبا الدرداء ورجال الصفة وغيرهم...[19]

ب- مرحلة التصوف السني

يقصد بالتصوف السني ذلك التصوف الذي كان يمارسه مجموعة من الزهاد السنيين والذين كانوا يحترمون قواعد الشرع الإسلامي من قرآن وسنة وإجماع، وهم أهل وجدان وكشف عن صدق وإخلاص يبتعدون قدر الإمكان عن الشطحات الغريبة والهلوسات الخارقة والقصص والكرامات الفانطاستيكية البعيدة عن نطاق الحس والعقل والغيب.

ولم يظهر التصوف السني في العالم الإسلامي إلا في القرن الثاني الهجري وخاصة بعد الفتوحات الإسلامية وانتشار الرخاء والغنى والجاه في البيئة الإسلامية التي كثر فيه التمدين العمراني والحضاري، وشيدت فيها القصور والبساتين،

وانتشر اللهو والمجون وكثر الطرب وازدهر شعر الخلاعة، فاختلط الناس بالحياة وأقبلوا على متع الدنيا وزينتها الزائفة. فظهر كثير من العلماء والأتقياء الذين يخافون الله ويطمعون في رحمته وغفرانه وتوبته النصوحة، فتركوا الدنيا وانعزلوا عن الناس والسلاطين وابتعدوا عن إغراءت الدنيا ومباهجها الفاتنة فاختاروا الخلوة الربانية وتمثلوا طريق الشرع الرباني وساروا على نهج الهدي النبوي وجعلوه مسلكا لهم في التعبد والمحاسبة والعبادة والاعتكاف.

ومن أهم كتاب التجربة الصوفية وجامع نصوصها في هذه المرحلة نستحضر القشيري في رسالته و فريد العطار في "تذكرة الألباب" والطوسي في كتابه "اللمع"... ويبقى الحارث المحاسبي هو العميد الأول للتصوف السني حسب محمد عابد الجابري، لكونه لم ينحرف في عملية التأويل ولم يغال فيها كما فعل المتصوفة السنيون، زد على ذلك أنه وقف صامدا في وجه التشيع الباطني .[20]

ومن أهم المتصوفة السنيين الذين يذكرهم التاريخ : المحاسبي والقشيري والحسن البصري والغزالي والسراج والجنيد وابن المبارك وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي وربيعة العدوية.

ومن أهم قواعد التصوف السني التي يرتكن إليها احترام مبادئ القرآن والسنة والإجماع، وتطبيق شعائر الدين والسعي في الدنيا بحثا عن الرزق وتمجيد العمل والشغل، لأنه زاد الدنيا والآخرة، علاوة على احترام خصوصيات الشرع في تأويل الظاهر والباطن وعدم إظهار ذلك لعامة الناس. كما يبتعد هذا النوع من التصوف عن الشطحات الصوفية والكرامات الخارقة التي تخالف الشرع الرباني. ويعلي المتصوفة السنيون من قيمة الأنبياء بالمقارنة مع الأولياء والشيوخ والأقطاب.

ج- مرحلة التصوف الفلسفي

لم يظهر التصوف الفلسفي في العالم الإسلامي إلا في القرن الثاني الهجري إبان الدولة العباسية مع اختلاط مجموعة من الشعوب والأجناس مع العرب المسلمين (الفرس والهنود والروم...)، وازدهار حركة الترجمة بتأسيس بيت الحكمة في عهد المأمون لنقل الفكر اليوناني، وانتشار المدارس الدينية والفلسفية في معظم أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، فساعد كل هذا في تلقيح التصوف الإسلامي بملامح خارجية أبعدته عن الصواب وجعلته فكرا منحرفا متأثرا بالأفكار الأجنبية الضالة كالغنوصية والهرمسية وأفكار الشيعة والرافضة المبتدعين.

وفي هذا يقول أحمد أمين: "ولكن لما فتحت الفتوح الإسلامية واختلطت الثقافات المختلفة وكانت تموج في المملكة الإسلامية الفلسفة اليونانية، وخاصة الأفلاطونية الحديثة والنصرانية والبوذية والزرادشتية، وجدنا أن هذا الزهد وهذا الحب الإلهي يتفلسفان، وتتسرب إلى التصوف بعض تعليمات من كل هذا.[21]

د- التصوف المذهبي أو الطرقي

بعد أن كان التصوف سلوكا فرديا انتقل ليكون مسلكا جماعيا، وسيكون للمريد العارف قطبا يهديه ويرشده، لأنه من الصعب أن يتعلم المريد في غياب الشيخ والقطب أو يسافر بعيدا في حضرته الصوفية وتعراجه الذوقي دون مرافق يساعده على تحمل مشقة السفر أو الحج.

ومن هنا، ظهرت طرق ومذاهب صوفية كثيرة تنسب إلى شيخ بعينه أو قطب بارز له أتباع كثيرون يتبعون مسلكه في المعرفة اللدنية، وبعد ذلك، ينتقل مشعل الوراثة الصوفية أو سبحة الولاية من شيخ إلى آخر بعد الإجازة والتوصية .

وقد انتشرت في العالم الإسلامي كثير من الطرائق الصوفية قديما وحديثا واقترنت بالزوايا والروابط والمساجد، فهناك الطريقة الأحمدية التي تنسب إلى أحمد البدوي وانتشرت في مصر إبان الظاهر بيبرس،

وهناك طريقة صوفية أخرى تنسب إلى أبي العباس أحمد بن عمر المرسي من مرسية بالأندلس، وهي بدورها انتشرت بمصر.

كما توجد عدة طرائق صوفية مشهورة كالطريقة التيجانية والطريقة الشاذلية والطريقة العلوية والطريقة القادرية والطريقة البودشيشية والطريقة الدلائية والطريقة الجيلانية والطريقة العيسوية والطريقة الناصرية والطريقة الحراقية...[22] هذا ، وقد نشب خلاف كبير حول قيمة التصوف في المجتمع العربي الإسلامي، فهناك من يدافع عنه ويعتبره فعلا إيجابيا، وهناك من ينظر إليه نظرة سلبية ومن هؤلاء: الدكتور محمد عابد الجابري الذي اعتبر الفكر الصوفي العرفاني فكرا خرافيا أسطوريا وسلوكا تواكليا، فالحقيقة عند الصوفية" ليست الحقيقة الدينية ولا الحقيقة الفلسفية ولا الحقيقة العلمية، بل الحقيقة عندهم هي الرؤية السحرية للعالم التي تكرسها الأسطورة ."[23]

وذهب ابن خلدون في كتابه "المقدمة" إلى أن المتصوفة المتأخرين قد تأثروا بالشيعة الغلاة والفكر الباطني المنحرف، فيقول في هذا الصدد:" إن هؤلاء المتأخرين

من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة وملأوا الصحف منه مثل: الهروي في كتابه "المقامات" وله غيره وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم." [24]

ولكن هناك من يشيد بالفكر الصوفي ويعتبره مسلكا للنجاة والخروج من أزمات الحياة المعاصرة، لأن مشكلاتنا مشكلات أخلاقية وأزمات روحية، كما أن الكثير من الطرق الصوفية قامت بدور هام في ميدان الجهاد وطرد المستعمر وحماية ثغور الوطن، وساهمت في خدمة المجتمع عن طريق الإنفاق والإحسان.

بعد هذا العرض المختصر ، هل يمكن وصف الأمير عبد القادر بالصوفي ؟ وكيف استطاع أن يجمع بين الجهاد و التصوف ؟

الأمير عبد القادر أول من جمع بين الجهاد و التصوف في الجزائر ، و قد اكتسب ذلك من التنشئة الأولى : تربية و تعليما و مطالعة و أخذا من المنابع الأولى في الإسلام .

ولد في 23رجب 1222ه /1807م في القيطنة و هي قرية اختطها جده قرب معسكر ، و قد كان أبوه محي الدين زعيم الطريقة القادرية التي تأسست ببغداد على يد المتصوف الكبير عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر . وكان متبحرا في العلوم الشرعية ، موثوق به في كل ما يتعلق بالأحاديث النبوية الشريفة ، و كان بيته مفتوحا للعلماء و الفقهاء يتذاكرون فيه .

وضمن هذا الجو المفعم بالعلم و التصوف ، نشأ عبد القادر و تمكن من حفظ القرآن عن ظهر قلب و لم يتجاوز ثماني سنوات من عمره ، و حفظ صحيح البخاري ويتلوه أيضا عن ظهر قلب على رفاقه ، و تتلمذ على رجال الفقه و العلم في قرية القيطنة، و تربى على أم تتمتع بالشخصية القوية وبالتواضع ، و قد عرفت بالكرم على الفقراء ، مع ما تلتزم به من التعاون مع زوجها محي الدين في كل ما يهم المظلومين .[25]

ومن خلال تكامل أعمال الوالدين في البر و التقوى نشأ عبد القادر و زهد في مظاهر الدنيا ، ومن ثم تشبع بالتصوف قبل أن يكمل دراسته و قبل أن يكون صوفيا في رشده ، و لما بلغ أربع عشرة سنة من عمره ، سافر إلى وهران لإكمال فنون العلم ، شأن سائر الجزائريين الذين يكملون تعليمهم داخل الجزائر في مختلف بيوتات العلم

في الزوايا، أو في القرويين بالمغرب الأقصى أو في الزيتونة بتونس أو في الأزهر الشريف بمصر .

وهذا ما حصل لعبد القادر وهو أنه أكمل تعليمه داخل الجزائر بتوجيه من أبيه.[26] ومن ثم تكونت لديه ملكة الميل إلى التصوف ، لأن البيئة أثرت فيه وهو بين تقليد في حب العلم وبين تقليد لأمه في العطف على الضعفاء والفقراء وبين تقليد لشيوخه في وهران من حب المطالعة والاستزادة من المعرفة الصوفية وأهل المقام، كما يشير إلى ذلك – مستقبلا – في مؤلفاته سواء في المقراض الحاد أو في ذكرى العاقل وتنبيه الغافل أو في أشعاره أو في كتاب المواقف . مما يدل على أن الرجل أشرب التصوف في زاوية جده و أبيه منذ نعومة أظافره .

إذن، فثقافة الأمير عبد القادر تلقاها من الرباط الذي نشأ به وهو الزاوية القادرية التي كان يرأسها أبوه وأجداده بالقيطنة .

كانت ثقافة متكاملة وذات مستوى رفيع فيما يتعلق بالعلوم الشرعية واللغوية ، و لكنه لم يكن في شبابه ميالا إلى التصوف العميق ، ففي عهد الصبا والشباب الأول شغل بالدراسة والتحصيل ، ثم ما إن اشتد ساعده حتى وجد نفسه في خضم المعارك التي كان يخوضها الشعب الجزائري ضد جيوش الاحتلال ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير باعتبار أن الجيش الفرنسي كان أقوى جيش في العالم آنذاك.

وبالرغم من أنه لم يحظ بأي تكوين عسكري رسمي إلا أن براعته في ساحة المعركة لم يكن لها مثيل، فلم يقم فقط بإنشاء تنظيم عسكري نجح في صد الغارات الفرنسية طيلة ستة عشر سنة بل وأيضا بالتفاوض حول سلام هش مع الغزاة الفرنسيين.

وخلال تلك الفترة تمكن من جمع العديد من القبائل الجزائرية وإرساء أسس دولة فتية بها مدارس وسلطة قضائية ومنظومة جبائية عادلة.

و قد ظهرت شجاعته و ثباته في الوغى منذ معركة خنق النطاح التي هزم المجاهدون فيها جيش الاحتلال .وقعت هذه المعركة أواخر شهر ذي الحجة سنة 1247هـ الموافق 29 ماي 1832م وكان عمر الأمير إذ ذاك 24 سنة .

وقد نظم الأمير عبد القادر قصيدة إثر هذه المعركة افتخر فيها بالأصالة وبالأصول، و ذكر بأنه هو و أهله مراجع في العلوم ، و لم يذكر من بين هذه العلوم التصوف، ليس لأنه لم يكن شائعا ، إذ يكاد التصوف يكون هو الثقافة السائدة في عصره، سواء في الجزائر أو في غيرها من أقطار العالم الإسلامي، و إنما لم يذكره الأمير عبد القادر لأنه لم يكن من موضوعات اهتمامه .

غير أن الأمير عبد القادر يذكر في كتاب المواقف الذي كتبه ثلاثين سنة بعد نظمه هذه القصيدة أنه كان مغرما بمطالعة كتب القوم (المتصوفة) منذ الصبا غير سالك طريقهم --فكنت – يقول : في أثناء مطالعتي أعثر على كلمات تصدر من سادات القوم و أكابرهم يقف شعري و تنقبض منها نفسي مع إيماني بكلامهم على مرادهم لأني على يقين من آدابهم الكاملة و أخلاقهم الفاضلة . ..... فكل ما قاله القائلون المؤولون لكلامهم لم تسكن إليه النفس إلى أن من الله تعالى علي بالمجاورة في طيبة المبارة . و كنت يوما في الخلوة أذكر الله تعالى فأخذني الحق تعالى عن العالم وعن نفسي ثم ردني وأنا أقول : لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعي ..فعلمت أن هذه القولة من بقايا تلك الأخذة ، وأني كنت فانيا في رسول الله – صلى الله عليه و سلم –ولم أكن في ذلك الوقت فلانا ، وإنما كنت محمدا وإلا لما صح لي قول ما قات . "[27]

وفي موطن آخر من نفس الكتاب يقول :" أخذني الحق عني وقربني مني فزالت السماء بزوال الأرض ، وامتزج الكل بالبعض ... وانتهى السير فانتهى الغير ، ثم قيل لي مثل قول الحلاج غير أن الحلاج قالها وأنا قيلت لي ولا أقولها . وهذا الكلام يعرفه ويسلمه أهله وينكره من غلب عليه جهله ." [28]

إذن كان يقرأ كتب التصوف ، طلبا للمعرفة واستكمالا للثقافة ، وكانت هموم الدنيا تشغله عن الانقطاع للعبادة إلى سن متأخرة ، فقوله :" إلى أن منّ الله عليّ بالمجاورة في طيبة . " يشير إلى بدء حياة التصوف ، والمجاورة في طيبة أو المدينة المنورة إنما كانت له عند عودته إلى البقاع المقدسة سنة 1864م/1280ه .

جاء في تحفة الزائر أنه طلب محلا لخلوته في الحرم النبوي الشريف ، فهيأ له محلا لصيقا بجدار المسجد ، وهو في الأصل بيت سيدنا أبي بكر الصديق ، و له خوخة في المسجد ، و هي التي قال فيها رسول الله –صلى الله عليه وسلم- :" كل خوخة في المسجد تسد إلاّ خوخة أبي بكر ...:" والخوخة: الكوة في الجدار و هي المرادة في قوله – عليه الصلاة و السلام – و في تاج العروس[29] : في الحديث : لا تبقى خوخة في المسجد إلا سدت غير خوخة أبي بكر : هي باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب .

فانقطع الأمير في ذلك المحل المبارك مدة شهرين ، فقويت بها معارفه و انكشفت له الحقائق القرآنية والأحاديث النبوية ."[30]

كما جاء فيها أيضا :" ثم أقبل الأمير على عبادة الله تعالى عند بيته الحرام في مسجده الحرام ، و تفرغ لها من كل شيء يتعلق بالدنيا و أهلها .[31]

إذن فالتصوف عند الأمير عبد القادر مر بمراحل، لكن أهم مرحلة التي برزت فيها سمات التجربة الصوفية عند الأمير عبد القادر ، هي تلك التي كان فيها في المشرق مع والده، لأداء فريضة الحج وهذه ما تسمى بمرحلة التصوف ، والتي فيها طالع كتبا ومؤلفات التصوفية، فهذه الرحلة تعتبر مرحلة اتصال الأمير عبد القادر بشيوخ التصوف والأخذ منهم، واتبعهم في عبادتهم الروحية ومجاهداتهم النفسية، فقد أخذ الطريقة النقشبندية في مدينة دمشق عن الإمام أبي البهاء، ضياء الدين النقشبندي السهروردي.

وقد أخذ الطريقة القادرية في بغداد على يد نقيب الأشرف السيد محمود الكيلاني القادري، وبعد عودته قام بنشر الطريقة القادرية على أهل قريته ودعا إلى الله فيها ، وكان هؤلاء الدعاة هم المجاهدون الذين كافحوا المستعمر.

مؤلفاته

1- كتاب المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد

المواقف كتاب في ثلاثة مجلدات في نحو خمسمئة وألف صفحة من القطع الكبير. يشتمل على اثنين وسبعين وثلاثمائة موقفاً. موضوعه التصوف والفكرة الصوفية، على غرار «الفتوحات المكية» للشيخ محي الدين بن عربي. وفيه مباحث صوفية، وتفسير آيات قرآنية، وشرح أحاديث نبوية، وبسط للعقيدة الإسلامية. كتبه في دمشق، وفيه آراؤه وسيرته بالتصوف، مملوء بالقول بوحدة الوجود على طريقة ابن عربي الفلسفية، قبس فيه كثيراً من آراء والده في كتاب إرشاد المريدين .

2- المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد

هذا الكتاب بما فيه من حجج دامغة وأدلة منطقية ساطعة، يثبت وجود الخالق العظيم لهذا الكون الهائل، ويبرهن مدى صحة وصدق الكتب السماوية.

2- ذكرى العاقل وتنبيه الغافل

وهي رسالة مطولة أيضاً، تتضمن مسائل جمة في مختلف العلوم. كالتاريخ والفلسفة والدين، والإصلاح الاجتماعي، والأخلاق. وهي رسالة في الحكمة والشريعة وتوافقهما، ومحاولة إيجاد صلة بينهما، واقتران إحداهما بالأخرى وائتلافها نصاً وروحاً.

4- كتاب نزهة الخاطر

وهو في الشعر، ونشره زكريا عبد الرحمن صياح تحت عنوان «ديوان الأمير عبد القادر الجزائري» سنة 1978.

ولقد كان الأمير عبد القادر زهيد في دنياه ، لا يتعلق بحطامها ، وهو يجد نفسه في الابتعاد عن ذلك ، وطعامه عادي وبسيط ولباسه كذلك، يقوم الليل مصليا مسبحا، ولا أفضل عنده من الصلاة والصيام، تحاشيا للتردي في كل خطيئة ، يخاف الله ، طيب مع الجميع ، لا يريد أن يتكبر على عباد الله، إنه نبيل يتحاشى إظهار ذلك، إنه أمين ولا يريد أن يأخذ شيئا من أموال الدولة، يحكم بالعدل والقسطاس، عدالته لينة وصارمة في نفس الوقت، وأحكامه مطابقة لما جاء في الشرائع السماوية، لا يتسامح مع من يرتكب غلطة خطيرة ، ولا يتورع عن معاقبة ابنه والقصاص منه لو اقترف ذلك.

ينصف أبسط المسلمين، لا يغادر المسجد إلاّ ناذرا، ولا يشرب ولا يأكل ولا يلبس إلاّ بما أمرت به شريعته .

يكره من لا يتبع الطريق المستقيم، ولكنه يحب الإنسان المتدين والذي لا يؤذي أحدا . وهو يستنكر ويتخلى عن أقرب أفراد عائلته إن هو ارتكب ما حرم الله."[32]

ولقب لدى العديد من المؤرخين الأوربيين بالإمام العسكري أو الفارس المتصوف لاعتماده على مبادئ الشرع الإسلامي، لأنه كان يعتمد على العلماء و شيوخ الزوايا، صيانة للوحدة الوطنية بحكم الإسلام السني على مذهب الإمام مالك . و كان شعاره:"العلم و العمل و الإيمان ."[33]

ولم تثنه الإمارة ولا الجهاد ولا السجن ولا المنفى ولا مخالطة رجال عصره من مختلف الأجناس والمسؤوليات ، فهو لم يتبدل ولم يتغير .

وربما كان هذا هو السبب في تعيينه أميرا، للقيام بالجهاد وهو أول في – اعتقادنا ورأينا – مـــن جمع بين التصوف كمبدأ والجهاد طبقا للكتاب و السنة.

ويعتبر الأمير عبد القادر مجاهدا متصوفا طوال حياته، سواء في ممارسة الجهاد وتسيير الدولة أو في السجن أو المنفى بالمشرق العربي أو في تنقلاته و زياراته لمختلف دول العالم، وقد حظي بما يحظى به الملوك والأمراء من التبجيل والاحترام والاحتفالات.

وقد سبقته سمعته إلى المشرق كمجاهد وبطل إسلامي، ومن ثم أصبح مركز إشعاع وبالأخص عندما أنقذ المسيحيين من الهلاك في الشام .

وظل وفيا لمبادئه حتى في السجن ورفض العيش في فرنسا و كان يقوم الليل و يعلم أبناءه ويكثر من المطالعة ، وكل الزوار يخرجون من عنده مبهورين لأن الجهاد والتصوف عنده لا يفترقان .[34]

الخاتمة

لقد كان للأمير عبد القادر شخصية صوفية متحررة من قيود التقليد والتبعية، و متطلعة إلى صفاء الشريعة الإسلامية و جوهرها النقي .

فقد مارس الأمير التصوف نظريا و عمليا، و آمن بالتصوف الإسلامي طريقا لتجديد الفهم الديني وأسلوبا للحياة، بعد سبعة عشر عاما من الجهاد و المواجهة مع العدو، وضع السيف و حمل القلم معلنا انتقاله من مرحلة الجهاد الأصغر إلى مرحلة الجهاد الأكبر، محققا بذلك للحديث الشريف و معايشا له، بأن مجاهدة النفس والهوى هي الجهاد الأعظم بعد جهاد العدو الذي يعد الجهاد أصغر، منتقلا من مرحلة عسكرية و حربية إلى مرحلة ثقافية و فكرية و روحية .

فالأمير عبد القادر وجه متعدد التقاسيم والتخصصات والميولات والأعمال والإنجازات، ولا يمكن أن نختزل الرجل في التصوف ولا في الأدب والشعر ولا حتى في الجهاد الوطني! ولا في الجوانب الإنسانية عنده! فهو يمثل كل هذه الأشياء وأكثر دفعة واحدة.

وتتويجا لهذا البحث ومن السير مع الأمير عبد القادر نقول: من من الرؤساء والزعماء وصل إلى هذه الشهرة بعد إلقاء السلاح ؟ وكلهم ينتهون بانتهاء الحرب ما عدا الأمير عبد القادر، فلا يزال يتعالى اسمه.

أو لا يستحق أن يقيم له المسلمون والمسيحيون ذكرى في كل سنة ؟ تخليدا لعظمته كمنقذ للإنسانية ومدافع عن حقوق الإنسان .

فهو مزدوج الشخصية بالإيمان والعمل وشعاره في الحقيقة مضمون سورة العصر: الإيمان والعمل والجهاد، لأن الصبر من مميزات الجهاد.

ولذا نؤكد على أن يدرس تصوف الأمير عبد القادر في هذا الإطار ، ولا يمكن أن يفصل عن ذلك ، لأن مواقفه في الإحسان إلى الأسرى ومواقفه في رفض البقاء في فرنسا ، ومواقفه في إطعام الفقراء ببروسة ، ومواقفه في الدفاع عن المسيحيين في جبل لبنان ودمشق يدل على أن الرجل ليس من طينة عهود الانحطاط ، وإنما هو من عهود السلف الصالح ، وشهرته التي طبقت الآفاق جاءت نتيجة لما يمتاز به من العبقرية في جميع المجالات .

الهوامش

1- كشف المحجوب للهجويري . ترجمة و تعليق إسعاد عبد الهادي قنديل . دار النهضة العربية ، بيروت 1980م .ص 708

2- كتاب حقائق عن التصوف، تأليف: عبد القادر عيسى، ص25.

3- كتاب اللمع. تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود طه عبد الباقي سرور. ط دار الكتب الحديثة بمصر 1960 م ص 46

4-انظر السراج الطوسي : اللمع في التصوف . أرنولد نيبكسون . مطبعة بريل . 1914.ص 26- 27

5- انظر : محمد عبد المنعم خفاجي . الأدب في التراث الصوفي .دار غريب . القاهرة 1938. ص 23- 24 .

6-انظر القشيري : الرسالة القشيرية . ص126

7- فتح الباري شرح صحيح البخاري - كِتَاب الرِّقَاقِ - أصحاب الصفة

8- انظر كشف المحجوب للهجويري . ترجمة عربية . اسعاد عبد الهادي قنديل . ص 230. دار النهضة العبية . بيروت .1980م

9-انظر : عبد الحكيم عبد الغني قاسم . المذاهب الصوفية و مدارسها . مكتبة مدبولي . القاهرة 1991. ص 28

10- انظر المرجع نفسه . ص 28 .

11- انظر المرجع نفسه .

12- انظر انظر المذاهب الصوفية ص 32-33

13- انظر الأدب في التراث الصوفي . ص 35-36 .

14- انظر أبو الفيض المنوفي . المدخل إلى التصوف الإسلامي . الدار القومية . القاهرة . ص31

15- انظر كتاب أضواء على الطرق الصوفية في القارة الافريقية . عبد الرزاق ابراهيم . ص 9 نقلا عن كتاب المدخل إلى دراسة الاديان و المذاهب لعبد الرزاق محمد اسود . 2 /7

16- أحمد أمين: ظهر الإسلام، المجلد 2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 5، 1969، ص:149

17- ابن خلدون: نفسه، ص467

18- صحيح البخاري - كِتَاب اسْتِتَابَةِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُعَانِدِينَ وَقِتَالِهِمْ - بَاب حُكْمِ الْمُرْتَدِّ وَالْمُرْتَدَّةِ وَاسْتِتَابَتِهِمْ

19- التصوف الإسلامي ومراحله . جميل حمداوي . مقال منشور. ديوان العرب .الصفحة الاساسية . الدراسات المحكمة . يوم 17 يناير 2018م

20- عابد الجابري: بنية العقل العربي، ص:282

21- أحمد أمين: ظهر الإسلام، ص:150-151

22- التصوف الإسلامي ومراحله . جميل حمداوي

23- عابد الجابري: بنية العقل العربي، ص:390

24- بن خلدون: المقدمة، ص:473

25- عظماء الإسلام : الأمير عبد القادر الجزائري . محمد كامل حسن المحامي . ص 21-32

26- انظر . د/ محمد بلغراد : مجلة التاريخ عدد خاص بالذكرى المئوية لوفاة الامير عبد القادر . ص49

27- المواقف . ج1 ص 46

28- انظر المواقف ج1 ص 38

29- تاج العروس 1/1805

30- تحفة الزائر ج2 ص142

31- تحفة الزائر ج2 ص136

32- تصوف الأمير عبد القادر تصوف جهاد . محمد الطاهر عزوي . مجلة المجلس الإسلامي الأعلى .ص198

33- مجلة الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية . أشغال الملتقى الثقافي الوطني . تيارت . مارس 1996. ص 84-87

34 - أنظر : أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر . أبو القاسم سعد الله . صج1 ص 133 .